جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول الطب على القياس والتجربة فهو اذاً علم وعمل وعليهِ قول ابن سينا في مقدمة أرجوزتهِ المشهورة

الطبُّ حفظُ صحةٍ برُّ مَرَضْ في بَدَنٍ من سببٍ عنهُ عَرَضْ
قسمتهُ الأُولى لعلمٍ وعَملْ والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتملْ
سبعُ طبيعاتٍ من الأُمورِ وستةٌ وكلُّها ضروري
ثمَّ ثلاثٌ سُطِّرتْ في الكتُبِ من مَرَضٍ وعَرَضٍ وسَببِ

وبناءً عليهِ يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض واعراضها واسبابها . واما عملهُ فيراد بهِ مزاولة صناعة العلاج إما بالجراحة وإما بالدواء وتدبير الغذاء وعليهِ قول الشيخ الرئيس في ارجوزتهِ المذكورة

وعملُ الطبِّ على قسمينِ فواحدٌ يُعمل باليدَينِ
وغيرهُ يُعملُ بالدواءِ وما يقدَّمُ من الغذاءِ

أمّا الامور الطبيعية السبعة فهي الاركان والمزاج والأخلاط والاعضاء والقوى والارواح والافعال ولكل منها احكامٌ وخصائص يطول الكلام عليها . قالوا ان الاجسام باسرها مركبة من الهيولى والصورة . وان الهيولى والعنصر والمادة والأسطقس والاصل والركن والموضوع متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار لان الشيء الذي يتكون منهُ شيءٌ آخر لا بدَّ وان يكون قابلاً لصورته فباعتبار كونهِ قابلاً للصورة مطلقاً يُسمى هيولى وباعتبار كونهِ قابلاً لصورةٍ معينةٍ يُسمى مادةً وباعتبار كون الصورة حاصلةً فيه بالفعل يسمى موضوعاً وباعتبار كونهِ جزءً للمركب يُسمى ركناً وباعتبار كونهِ يبتدئ منهُ التركيب يسمى عنصرًا وباعتبار كونهِ ينتهي اليهِ التحليل فيكون اصغر جزءٍ في المركَّب يُسمى اسطقساً وباعتبار كون ذلك المركب مأخوذًا منهُ يُسمى اصلاً فالركن ابسط شيءٍ في المركَّب ويقال على الاجزاء الاولية لبدن الانسان وهي مكونة من العناصر الاربعة على ما يؤخذ بالاستقراء وهي النار والماء والهواء والتراب . وقالوا ان البدن مؤلف من الاعضاء الآليَّة وهذه الاعضاء تتكوَّن من الدم

وهو من الغذآء وهو اما نبات او حيوان وهو ايضاً من النبات والنبات انما يقوم بالمآء والهوآء والتراب وحرارة الشمس فمرجع التكوين الي العناصر المذكورة . والنار بالطبع حارة يابسة والمآء رطب بارد والارض رطبة يابسة والهوآء رطب حار * واما الامزجة فهي كيفيات متشابهة تحدث من تفاعل الاركان بقواها المتضادة وهي على ثماني حالات وكلُّ مقابلٍ ينقسم الى ثمانية اقسام فالخارجة عن الاعتدال الطبي اربعة وستون والمعتدل الحقيقي الذي لا وجود لهُ واحد فالجملة ثلاثة وسبعون ولهم في بيان ذلك كلام طويل لا محل لها الآن * واما الاخلاط فهي اجسام رطبة سيالة تتولد من الغذآء وهي الدم والصفرآء والبلغم والسوداء وذلك ان الغذآء متى انهضم في المعدة يستحيل الى الكيلوس وينجذب الصافي منهُ الى الكبد فينطبخ فيهِ فيحصل فيهِ شيءٌ كالرغوة وشيءٌ كالرسوب وشيءٌ فجٌّ فالرغوة هي الصفرآء والرسوب هي السوداء والشيء الفج هو البلغم واما المصفّى من هذهِ الجملة نضيجاً فهو الدم * واما الاعضآء فهي الاجسام المتولدة من اول مزاج الاخلاط وتنقسم الى رئيسية وهي القلب وفيهِ مبدأ قوة الحياة والدماغ وفيهِ مبدأ قوة الحس والحركة والكبد وفيهِ مبدأ التغذية * واما القوى فهي اما

طبيعية محلها الكبد او حيوانية محلها القلب او نفسانية محلها الدماغ ولكل منها اقسام ليس من غرضنا بيانها الآن * واما الارواح فهي اجسام تحدث عن بخارية الاخلاط ولطافتها وتنقسم الى طبيعية وهي التي تنفذ من الكبد في العروق الغير الضوارب (الاوردة) الى جميع البدن والى حيوانية وهي التي تنفذ من القلب في العروق الضوارب (الشرايين) الى جميع البدن والى نفسانية وهي التي تنفذ من الدماغ في العصب الى اقاصي البدن

واما السنة الضرورية فهي (١) الهوآء و(٢) الغذآء و(٣) النوم واليقظة و (٤) الحركة والسكون و(٥) الاستفراغ و (٦) الأحداث النفسانية . وكل ذلك يستلزم معرفةً مدققةً للتوصل الى معرفة حقيقة المرض واسبابهِ واعراضهِ وبالتالي الى معرفة علاجهِ . وقالوا في حدّ المرض انه حالة للبدن خارجة عن المجرى الطبيعي معها ينال الافعال الضرر بلا واسطة وان الاعراض علامات يعرف بها الخلل الحادث ومحلهُ من البدن وسببها افعال الاعضآء بما يُجرى فيها على غير النظام الطبيعي لان الطبيعة تحاول اصلاح هذا الخلل وتغالب قواها قواهُ فاما ان تقهرهُ فتحدث الصحة واما ان يقهرها فتحدث الموت فالطبيب

النطاسيُّ اذًا انما "هو خادم الطبيعة" التي تحذو لافعالُ الطبيةُ حذوَها فيجب عليهِ ان يقويها متى وجدها ناهضة بشفاءِ مرض او يتركها على حالها وان يقوّيها ويقابل مقاومها بما يضادّهُ متى وجدها مقصرةً وان وجدها عادمة آلةٍ او مسلكٍ هيّأ ذلك لها مثل رد خلع وتسوية كسر وفتح عرق كل ذلك بحسب الامكان . ووضعوا للمعالجة بالدواءِ قوانين هي اولاً اختبار كيفية الدواءِ من حرارتهِ وبرودتهِ ورطوبتهِ ويبسهِ وذلك بعد معرفة نوع المرض هل هو حارٌّ او باردٌ او غير ذلك ليعالج بالضدّ وتحفظ الصحة بالمثل وثانياً اختيار وزنهِ هل يؤخذ منهُ كثير او قليل وثالثاً وقت استعمالهِ والوقت الحاضر من اوقات الفصول واوقات المرض وهي اربعة الابتداءُ والتزيّد والوقوف والانحطاط فيعطيهِ ما يناسبهُ في تلك الاوقات

هذهِ هي خلاصة ما ذهب اليهِ الحكماءُ في الطب القديم اخذتها عن عدّةٍ من كتبهم المعتبرة ولم اتصدَّ لبيان ما بنوا عليها من الآراءِ والمذاهب وما توسعوا فيها من الشرح والتفصيل وما تحرّوا من المباحث والمطالب وانما قصدت الاشارة الى الاصول التي اتخذوها اساساً لمعارفهم لتسهل المقابلة بينها وبين الاصول المتخذة الآن فتُدفع مزاعم الذين يهرفون بما لا يعرفون

ويكتبون عنهم وهم لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون ويُعلَم ان الطب انما وصل الى حالته الحاضرة من الاتقان واتساع المدى وصحة المبادئ بعد ان تدرج في مراتب الارتقاء من طور الى طور حتى وصل الينا في هذا الطور وقد كاد يبلغ ذروة الكمال

وقد مرَّ بك ان القدماء بنوا مذهبهم في تركيب بدن الانسان من الاركان الاربعة على تعليم بقراط مستدلاً على ذلك بان العناصر اربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب وان هذا المذهب بقي شائعاً معوَّلاً عليه حتى الى امدٍ قريب وذلك لانهم توهموا ان العناصر الاربعة انما هي بسيطة ولم يكن لديهم من الوسائط ما يهتدون بهِ الى معرفة حقيقتها الا الحدس والظن والانسان مطبوعٌ على حب التقليد والتحدي فلم تكن مخالفة هذا المذهب بالامر الهين طالما لم يثبت نقيضهُ ببرهان التجربة والمشاهدة . على ان الكيماويين من العرب قد مهدوا السبيل لمعرفة تركيب العناصر بما اجروا من التجارب لتحويل المعادن الى فضةٍ وذهب واقتفى أثارهم بذلك بعض الرهبان كروجر باكون واول ما اهتدوا اليهِ تحويل الزنجفر الى الزئبق والكبريت ثم كشف بريستلي الانكليزي وشيلي الاسوجي

ولافوازياي الفرنساوي غاز الأُكسجن سنة ١٩٧٤ وسنة ١٧٧٥ وكشف كافندش الانكليزي غاز الهيدروجن سنة ١٧٦٦ وكشف الدكتور رثرفرد النيتروجن سنة ١٧٧٢ وسماهُ لافوازياي ازوتاً لعدم صلاحيتهِ للحياة فثبت كون الماء مركباً من الهيدورجن والأُكسجن وكون الهوآء مركباً من الاوكسجن والازوت وغيرهما وان النار ظاهرة تتولد من اتحاد مادة كربونية بغاز الأُوكسجن في حالة الاشتعال وان التراب مركب من عناصر كثيرة يطول شرحها

وكان التشريح محرّماً على القدمآء فلم يكن من سبيل لمعرفة منافع الاعضآء الا بقدر ما توصل اليهِ بقراط بحدسهِ الصائب وذكآئهِ الغريب من النظر الى الحيوانات التي كانت تقدَّم في هياكلهم ضحايا لآلهتهم واول من مارس التشريح من القدمآء هيروفيلوس الخلقيدوني في مدينة قوس فهاج اهلها عليهِ حتى اضطروهُ الى الهرب فجآء الى الاسكندرية واشتغل في مدرستها بتشريح الحيوانات وجثث المحكوم عليهم بالاعدام واتهم بتشريح الاحيآء وتبعهُ ايرازستراتوس من مدينة قيدوس فتحققا اشيآء كثيرة مما لم تصل اليه معرفة الذين تقدموهما واخذ عنهما جالينوس واشتغل ايضاً بالتشريح في مدرسة

الاسكندرية وألف الكتب التي اهتدى بها علماء العرب وتوسع كثيرًا بمباحثه الاَّ انهُ تابع ارسطو بزعمهِ ان الدم ينفذ من احد بُطيني القلب الى الآخر بواسطة بطين ثالث سماهُ دهليزًا وربما حداهُ الى هذا الزعم مشاهدتهُ في أجنة الحيوانات اللبونة ثقبًا بين البطينين لان الدم الشرياني يختلط بالوريدي في الاجنة وهذا الثقب يُسدُّ بعد الولادة . وقال ان الشرايين تحمل الروح والاوردة تحمل الدم . ومن يتأمل في مؤلفات اطباء العرب يرى ان معارفهم بالتشريح لم تكن قاصرةً الى الحد الذي توهمهُ بعضهم بحجة ان التشريح كان محرمًا عليهم . قالوا في تشريح القلب ما نصه " اما القلب فانهُ جسمٌ مخروطي كهيئة الصنوبر قاعدتهُ وسط الصدر ورأسهُ الى جانب اليسار وهو احمر مُدَّاني مركَّبٌ من اللحم والليف والغشاء الصلب (وهو الصمامات) المنتسج من ثلاثة انواع من الليف الطويل الجاذب والعريض الدافع والمورب الماسك ليكون لهُ اصناف الحركات وفنون الافعال . وهو منبع الحرارة الغريزية ولهُ بطنان احدهما الايمن وهو مملوء بالدم الكثير والروح القليل ولهُ مجاري يجري فيها من القلب الى الرئة دمُ الغذاء ومن الرئة الى القلب الهواء والثاني الايسر وهو مملوء بالروح الكثير والدم القليل وهو منبت

الشرايين . ومن ذلك يعلم ان اطبآء العرب لم يبعدوا كثيرًا عن معرفة حقيقة دورة الدم . فلو ابيح لهم اجرآء التجارب على الحيوانات حيةً كما فعل هرفي في القرن السادس عشر لما قصروا عن مداهُ ومع ذلك فقد عرفوا ان منفعة الرئتين الترويح وهو عندهم نفض البخار الدخاني (الحامض الكربونيك) وجذب النسيم اليه (وهو الهوآء النقي المشتمل على الأُكسجن) . ومن ذلك يُعلم انهم حوّموا على الحقيقة بالحدس الصائب . وقالوا ان الدم اصل في تكوين الجسم الحيواني وان تغذية جميع الاعضآء انما تقوم به بحيث يتناول كلُّ جزءٍ منهُ ما يماثلهُ ويصلح لان يتشبَّهَ به فيحصل التركيب والافراز ونتيجة ذلك النماء وطرح الفضول . وعرفوا الاعصاب وعددها ومنابتها من الدماغ والنخاع الفقري وانها تورد الحس وتصدر الحركة . وقيل ان جالينوس عرف ذلك بالتجربة حيث قطع في مواضع من النخاع الفقري طولاً وعرضاً كما فعل شارل بلّ في القرن الاخير فتحقق مصدر الحسّ والحركة في العصب الواحد . وفيما تقدم كفاية لتفنيد مزاعم الذين يقولون ان علمآء العرب كانوا بعيدين عن الحقائق العلمية بمراحل وانهم لم يبتدعوا رأياً ولم يستنبطوا امرًا

ولو عرفوا ليلى اقرُّوا بفضلها وقالوا باني في الثنآء مُقصِّرُ